العلماء والمؤسّسة والدعوة والزمن الجديد

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾

عبد الرحمن السالمي

I

تعكسُ الآية الكريمة عدة مسائل لا بُدَّ من استعراضها جميعاً لكي يكتمل المشهد، هذه المسائل يمكن مناقشتها من ثلاثة محاور: من جهة مفهوم (العلماء) و(أهل العلم) و(المؤسسة) الذي كان ثم تطوّر. وثانياً طبيعة المشروع الذي يقع العلماء في أُسِّه وأساسه. وأخيراً المهمّات القديمة والمستجدة وما بقي وما ذهب، وكيف تكون الإحاطة ممكنة.

كان الإباضية الأوائل يعبّرون عن المسألة بدقة عندما يسمُّون نخبتهم الدينية: «حملة العلم»، والتعبير قرآنيٌّ مأخوذ من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾. والحمل أو التحمُّل بالمعنى المجازي: القيام بأعباء ومسؤوليات أمرٍ معيّنٍ أو عدة أمور. وهذا التحمُّل قد يكون تكليفاً يوجّه للمرء، وقد يكون أمراً كلّف به المرءُ نفسه. وفي الحالة التي نبحثها يجتمع الأمران: التكليف من جهة، ونذر النفس من جهةٍ ثانية. بمعنى أنّ «حملة

العلـم» (والعلم هنا مُـرادف للدين) تلقَّـوا تكليفاً في مثـل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، والتزموا من جانبهم القيام بمهمّات ومسؤوليات هذا التكليـف، وحاولـوا تجنُّب ما وقع فيه علمـاء بني إسـرائيل الذين حملوا التوراة علـى كواهلهم، ثم مـا لبثوا أن أهملـوا أداء الرسـالة أو القيام بمقتضياتها. ومنذ أجيال تـدور جدالاتٌ في معنى مفهوم (أهل العلم) وهل يُقصد به مؤسسةٌ أم أفرادٌ.

فالمؤسسـة لدى أهل الديانات الأُخرى تملك قُدْسـية لا يدّعي علماؤنا شيئاً منها، وإذا نظرنا إلى «الاستمرارية» التي تحقّقت للعلماء في الإسلام؛ فلا بد أن نُطلق عليهم لقب المؤسسـة؛ لكنْ ليس من أجل الاستمرار فقط؛ بل ولأنهم يقومون على مشروعٍ كبير، هو المشروع الإسلامي.

إنّ القول بالقيام على مشـروعٍ يعنـي معرفة طبيعة المهمـة التي يراد القيامُ بهـا، ويعني من جهـةٍ ثانية اختبـار النفس والتلاؤم مـع إمكانيات المشـروع ومسـؤولياته، وقد كانت تلك تجربة «العلمـاء» المديدة مع هذه المهمة الشاسـعة. فقد قامت مؤسسةٌ مفتوحةٌ، تسـتهدي الأمر القرآني من جهـة، وتتبصر في المهمّات أو جوانب المهمة والرسـالة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾. فأَصْلُ المشروع الدعوةُ إلى الخير العامّ، وإذا دخلنا في التفصيل نعرف أنّ مشروع الخير هذا يقوم على الأمر بالمعـروف والنهي عـن المنكـر؛ فالمهمةُ واحـدةٌ؛ لكـنّ «العلماء» يستطيعون المُضيَّ في أحد طرفيها أو الطرفين معاً: المعروف والمنكر. ومما له دلالتُهُ أن يتقدم الأمـر بالمعروف على النهي عن المنكـر؛ بما يعني أنّ المعروف هو أداةُ مشـروع الخير ومقصده وغايتـه، وإذا عرض المنكر فإنه إنما يعـرضُ للإعاقة والتعسـير والتعطيل، وليس العكـس؛ أي أنّ المعروف ماضٍ في طريقه لن يسـتطيع الحيلولةَ دونه أيُّ اعتبارٍ آخَر. ومما له دلالتُهُ هذا الإطلاق؛ بمعنى أنّ هذه «الأمـة» الداعية إلى الخير والآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر مسـتمرةٌ باسـتمرار مهمتها، ومهمتها مستمرةٌ باستمرار

المشـــروع، ومما له دلالته أيضاً اختيار مفردة «الأمـــة» وليس القلة أو الثُلّة على سبيل المثال؛ لأنّ العلماء إنما يقومون لله وللأمة بمهمة الدعوة الجليلة. فالتكليفُ في الأصل للأمة بعامةٍ بالإسلام ودعوته الخيِّرة، وفي الوقت الذي يقومُ به العلماء بالدعوة إلى الخير بتكليفٍ ونذرٍ للنفس في سبيل الله يمثّلون أيضـــاً الأمة ويقومون فـــي طليعتها؛ لأنهم إنمـــا يؤدون بموافقتهـــا واختيارها مقتضيات مشروع الأمة المتمثل في دينها ودعوتها الخيِّرة.

II

ونصل إلى المهمات؛ فقـــد كان الحديث من قبل عن المشـــروع الكبير ومقتضياتـــه، وقد ذكرت الآيـــةُ الكريمةُ معالمه الكبرى فـــي أصله وفرعيه، وإلى ذلك المشـــروع نهض أهل العلـــم أو حملتُهُ للقيـــام بحقّه فظهرت عبر التجربة السُـــبُل لقيادة المشـــروع وصَونه، وقد كانت أُولى المهمّات الحفظ والصَون. والحفظ يشـــملُ قراءة القرآن وحفظه وتفســـيره وتعليمه، والصون يشمل مهمة التعليم، تعليم الدين والفِقه للأجيال الشابة. وهكذا كان حملةُ العلم دائماً؛ فهم يتعلمون ويعلِّمون في سلســـلةٍ من سلاســـل الخير والرُشـــد لا تتناهى، ونحـــن نعلم أنّ التعليـــم والفتوى كانتا في طليعـــة المهمّات، ثم وجدناهم يتولَّون القضاء، وتظهر بينهم مذاهب ومسارب في التفكير الفقهي والقانوني. فكما صـــاروا عماد النظام التعليمي، صـــاروا أيضاً عماد النظام القضائي. والقضاء لا يعنـــي تنظيم العدالة، وفضّ المشـــكلات بين الناس وحسب؛ بل يعني أيضاً التشـــريع بالمعنيين الإجمالي والتفصيلي. ولذا فبعد أن كان الاجتهاد الفقهي مساوقاً للقضاء والتعليم والفتوى، صار يعني أيضاً ـ بســـبب التقعيد والتفكير الأصولي والمقاصدي ـ عملاً مـــن أعمال الرؤية العامة للإســـلام وشـــريعته والوظائف والأدوار في هذا العالم، والتفكير في غايات التشريع ومقاصده هو الذي وضع «العدالة» في هذا الموضع السامي؛ أي في ما وراء فضّ النزاعات التي تحصـــل بين الأفراد والجماعات، وصولاً

لإمكان التفكير في المُسالمة والسلام على مستوى العالم، ولسنا نعني هنا أنّ الفقهاء انفردوا بمباحث المقاصد، مثل انفرادهم بالتعليم والفتوى وقراءة القرآن وتفسيره؛ فقد انضمّ إليهم المتكلمون والفلاسفة، وكُلٌّ من تلك الفئات حاولت أن تكون لديها منظومةٌ شاملةٌ في فهم الدين ومقتضياته وأطواره.

ومنذ القديم كان هناك تركيزٌ على وحدة العبادة، فالمسلمون أرادوا دائماً الصلاة معاً، والصوم معاً، والحج معاً، والسير معاً في سبيل الخير، وإرادةُ التوحُّد هذه لم يقدها دائماً أهلُ العلم أو حَمَلتُه. ثم مع اتساع الأمصار، وانسياح الأمة، وظهور وتبلْوُر ثقافة كبرى للإسلام، كان لا بد أن يتدخل (حملةُ العلم) لحماية وحدة العبادات، كما نجحوا في حماية الدين بمعناه العامّ وصَونه.

لقد كانت تلك عجالة في فهم تكوُّن فئة (حملة العلم) استناداً إلى التكليف والمهمّات، وقد طالت التجربة لأكثر من ألف عام، وتبلورت على النحو الذي عرضنا معالمه الكبيرة. وقد انقضت المراحل الكلاسيكية، ونحن منذ مائة عامٍ وأكثر في اضطراب على كل المستويات، ولسنا بالطبع في معرض الحديث عن التغيير الاجتماعي والتاريخ، وإن يكن الحديث عن العلماء في الأزمنة الحديثة لا يستقلّ عن التغيرات الحاصلة. وما أعنيه بالاقتران والمقارنة أنّ المتغيرات الفكرية والثقافية والاجتماعية اقتضت زوال بعض مهمّات الفقهاء والعلماء، وبروز أُخرى، ولستُ أرى أنّ التغيير على جذريته تناول أكثر من ذلك.

لقد كان هناك من قال: إنّ تكليف الفقهاء نفسه قد زال أو تزعزع، وحجته في ذلك ذات شقين متناقضين:

الأول أنّ الاندماجيات أنتجت ثقافةً أو ثقافات جديدة حتى في الدين، ولم يعد بوسع الشيخ أو العالم الإحاطة والاستيعاب والإرشاد.

والثاني أنّ الدين دخل في مجالاتٍ لم يكن يدخل فيها من قبل، فظهر له رجالاتُه الذين تصدّوا ويتصدّون للقيام بالمهمّات الجديدة، فلم يعد الفقهاء قادرين أو صالحين لأداء مهمّات التشريع والتعليم والفتوى! وهاتان دعوتان متناقضتان كما هو واضح. فالحق أنّ المعطيات تغيرت، والمجالات تقاربت؛ لكنّ المهمّات ما تغيرت ولا اختفت. فالعالِمُ اليومَ محتاجٌ إلى التعرف على مجالات جديدة، ومحتاجٌ بعبارةٍ أُخرى إلى زيادة الاحتراف. هناك من يَعدّ الاحتراف سُبّةً باعتباره غير مستحبٍّ في الدين كما في السياسة؛ حيث ينبغي أن تغلب اعتباراتُ الرسالية والمهمة، وهذا جيدٌ لهذه الناحية. لكنّ الاحتراف يعني المعرفة والتخصص والتفرغ لاهتمامٍ معين، فحتى لو كانت هناك أحاسيس رسالية؛ فإنّ المعرفة ضروريةٌ للقدرة على القيام بما تقتضيه الرسالة التي يُحسُّ بها المرءُ أو يحملُها. ولذا فمن الضروريِّ إذاً ومن دون تفصيلٍ كثير توافُرُ المعرفة والإيمان بالمهمة؛ بل إنّ الإيمان بالمهمة هو الذي يدفع باتجاه المعرفة والاحتراف.

هناك مهماتٌ قديمةٌ / جديدةٌ لدى أهل العلم وحملته في الإسلام اليوم، وهي: النهوض بأعباء وحدة العقيدة والعبادة، والنهوض بالفتوى، والنهوض بالتعليم، والنهوض بالإرشاد العامّ. وإذا كنا نشكو قبل عدة عقودٍ من إعراض النُخَب عن الدين؛ فإنّ هناك شكوى اليوم من الإقبال المُبالَغ فيه، مع الافتقار إلى العنصر الأخلاقي، وإلى الدوافع الحسْبية والخيرية البارزة. وبذلك فإنّ النهوضَ بهذه المهمّات الأربع يعني عملاً يقطع الأنفاس، ولا يمكن إلّا أن يكونَ جماعياً؛ أي من ضمن مؤسَّسات. وإذا كان علماؤنا الأوائل وسلفنا الصالح يعبِّرون عن مشقة حمل الرسالة بأنه «تحمُّل العلم»؛ فإنّ الفتنة والمحنة اليوم في كثرة المعروض، وقلّة الحَمَلَة العارفين والملتزمين، والذين لا تهولُهُمُ الصِعاب، وبذا لم تتغير المهامّ؛ بل تغيّرت المعطيات الضرورية للقدرة على تحملها.